من خمر الزوال ...

الأستاذ محمود حسن إسماعيل

[إلى التي سقتني ولم تشرب معي خمر الزوال ،
وإلى الذين يشربونها مثلي من يد الزمان !]

لا تَتْرُكِينِي فِي ضَلَالْ بَيْنَ الحَقِيقَةِ وَالخَيَالْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الزَّوَالْ

أَصْبَحْتُ لَا نَغَمٌ يُفَجِّـ ـرُ لِي الشُّلُوَّ وَلَا رَبَابْ !
قَلْبِي حُشَاشَةُ طَائِرٍ فِي الصَّيْفِ أَحْرَقَهُ اليَبَابْ
عُمْرِي بَقِيَّةُ مَوْجَةٍ حَيْرَى تَخَطَّفَهَا العُبَابْ
فِي زَاخِرٍ لَمْ يَدْرِ مَا بِحْهُ أَبَحْرٌ أَمْ سَرَابْ ؟ !
رُحْمَاكِ.. لَمْ أُصْبِحْ سَوَى شَبَحٍ يَسِيرُ عَلَى تُرَابْ ..

لَا تَتْرُكِينِي زَلَّةً فِي الأَرْضِ تَأْبَاهَا المَتَابْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ العَذَابْ

أَصْبَحْتُ أَشْوَاقًا مُعَذَّ بَةً تُضِيءُ مِنَ الخَفَانْ
وَأَسًى يَدُورُ فَلَا تَقَـ ـرُّ لَهُ عَلَى كَبِدٍ يَدَانْ
وَصَدًى تَجَسَّدَ فِي الأَثِيـ ـرِ فَكَادَ يُلْمَسُ بِالبَنَانْ
وَرُفَاتَ أُغْنِيَةٍ لِحِبْـ ـكِ لَمْ تَزَلْ تُشْجِي الزَّمَانْ
رُحْمَاكِ... مَا بِيَدَيَّ إِلَّا مِنْ ـ غَرَامِكِ ـ دَمْعَتَانْ

لَا تَتْرُكِينِي فِيهِمَا لَهَبًا يُذَوِّبُهُ الجَفَانْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الْهَوَانْ !

أَصْبَحْتُ لَمْ أُصْبِحْ ! وَلَمْ يُشْرِقْ عَلَى خَلَدِي صَبَاحْ
أَنَا ظُلْمَةٌ سَكْرَى بِأَقْـ ـدَاحٍ تَطُوفُ بِهَا الرِّيَاحْ
فِي قَفْرَةٍ نُسِيَتْ فَلَمْ يَخْفِقْ لِطَائِرِهَا جَنَاحْ
وَبَكَى بِهَا الصَّمْتُ الغَرِيـ ـبُ وَنَاحَ مِنْ فَمِهِ النُّوَاحْ

رُحْمَاكِ ! نُورُكِ فَوْقَهَا قَدَرٌ لِغَيْرِي لَا يُتَاحْ !

لَا تَتْرُكِينِي ذَاهِبًا كَخَرِيفِ لَحْنٍ فِي صُدَاحْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الْجِرَاحْ

اللَّيْلُ يَا لَيْلَايَ لَمْ يَتْرُكْ عَلَى كَبِدِي أَنِينْ...
إِلَّا وَسَارَ بِهِ غِنَـ ـاءٌ فِي صَحَارَى العَاشِقِينْ...
وَسَرَى بِلَوْعَتِهِ شِرَا عًا لَا يَسِيرُ بِهِ سَفِينْ ...
يَجْرِي عَلَى مَوْجِ الخَيَا لِ عُلَالَةً لِلبَائِسِينْ
أَرَأَيْتِ حَيْرَانًا يَلُو ذُ بِهِ عَذَابُ الحَائِرِينْ ؟ !

لَا تَتْرُكِينِي يَا شَقِيَّـ ـةُ غُنْوَةَ الزَّمَنِ الحَزِينْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ السِّنِينْ ...

بَكَتِ الجَزِيرَةُ حِينَ قُلْـ ـتُ لَهَا وَدَاعًا لَنْ أَعُودْ !
وَتَأَوَّهَ العُشْبُ الحَبِيـ ـبُ وَوَلْوَلَتْ بِيَ النُّهُودْ
وَالرِّيحُ رَوَّعَهَا الرَّحِيـ ـلُ كَأَنَّهَا فَزَعٌ شَرُودْ ...
وَالمَوْجُ إِعْصَارٌ تَمَـ ـزَّقَ أَوْ تَبَارِيحُ النُّهُودْ
أَرَأَيْتِ كَيْفَ غَدَا الهَوَى عَدَمًا تَوَهَّمَهُ وُجُودْ ! !

لَا تَتْرُكِينِي بَعْدَهُ حَسَرَاتِ لَحْنٍ فَوْقَ (عُودْ)
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الخُلُودْ...

مَرَّتْ لَيَالِينَا كَمَا الأَوْ هَامُ ... عُودِي يَا لَيَالِي !!
إِنِّي كَتَبْتُكِ فِي الزَّمَا نِ خُطُوطَ غَيْبٍ فِي خَيَالِ
إِنِّي سَمِعْتُكِ فِي الخَيَا لِ أَنِينَ صَوْتٍ فِي رِمَالِ
إِنِّي رَأَيْتُكِ أَدْمُعًا سَوْدَاءَ جَائِعَةً حِيَالِي
أَرَأَيْتِ كَيْفَ طَوَتْ صِبَا يَ، فَاتَ، أَحْزَانُ الجَمَالِ !؟

لَا تَتْرُكِينِي كَالرُّدَى أَرِدُ الفَنَاءَ وَلَا أُبَالِي
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الْهَوَى خَمْرَ الضَّلَالِ

أَذَكَرْتِ حِينَ جَثَتْ لَدَيْـ ـكِ صَبَابَةُ اللَّيْلِ الجَمِيلْ؟
وَسَنَدْتِ رَأْسَكِ فَوْقَ صَدْ ـرٍ لَا يُفَارِقُهُ الغَلِيلْ
فَشَجَتْكِ فِي القَفَصِ المُحَطَّـ ـمِ ذَبْحَةُ الطَّيْرِ القَتِيلْ ...
وَسَمِعْتِ مِنْهُ مَعَ الظَّلَا ـمِ تَفَجُّعَ المَاضِي الطَّوِيلْ
وَرَأَيْتِ فِيهِ خُطَا غَرَا ـمِكِ فِي ضَبَابِ المُسْتَحِيلْ

لَا تَتْرُكِينِي عَاصِفًا فِي البِيدِ يُزْهِقُهُ العَوِيلْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى لَهَبَ الرَّحِيلْ

أَوَّاهُ ... إِنْ وَلَّى هَوَا ـكِ وَجَاءَ يَصْرُخُ لِي هَوَايْ!
وَدَعَوْتُ نُورَكِ لِلفَرَا ـمِ فَرَدَّ جُرْحٌ مِنْ صَدَايْ!
وَمَدَدْتُ كَفِّي لِلسَّلَا ـمِ فَصَافَحَتْكَ عَلَى حَشَايْ!
وَذَهَبْتُ مَلْهُوفًا إِلَيْـ ـكِ فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا خُطَايْ
وَبَقِيَّةً مِمَّا وَعَى طَيْرُ الجَزِيرَةِ مِنْ بُكَايْ!

لَا تَتْرُكِينِي عَارِفًا أَرِدُ الضِّفَافَ بِغَيْرِ نَايْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى بِلَوَى صِبَايْ!

مَا ذَا أَقُولُ إِذَا الهَوَى أَوْمَا إِلَيَّ وَلَمْ يُنَادِ ؟!
وَإِذَا الرَّحِيقُ دَعَا فَكَيْـ ـفَ يُجِيبُ خَمْرَتُهُ فُؤَادِي؟!
وَإِذَا تَأَلَّقَتِ الرُّؤَى وَمَضَتْ تَوَهَّجُ فِي وِسَادِي؟!
وَرَنَا لِيَ المَاضِي بِطَيْـ ـفٍ مِنْكِ مُرْتَعِشِ الحِدَادِ
فَبِأَيِّ كَأْسٍ مِنْ دَمِي أَسْقِيهِ أَحْزَانَ المَعَادِ ؟!

لَا تَتْرُكِينِي ضَلَّةً فِي الأَرْضِ ثَاكِلَةَ الرَّشَادْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى نَدَمَ الرَّمَادْ...

لَا تَسْأَلِينِي بَعْدَ يَوْ مِكِ كَيْفَ أَيَّامِي تَسِيرْ !!
إِنِّي حُدَاءٌ سَاخِرٌ بِقَوَافِلِ الزَّمَنِ الكَبِيرْ
لَكِنْ سَأُصْبِحُ آهَةً وَلَهًى مُضَيَّعَةَ المَصِيرْ
فِي صَدْرِ مَطْلُوبٍ شَقِيٍّ المَوْتِ مَظْلُومِ الضَّمِيرْ
فَإِذَا سَمِعْتِ صَبَابَةً غَنَّى بِهَا وَتَرِي الأَخِيرْ...

لَا تَتْرُكِينِي بَعْدَهَا أَهْوَى السَّمَاءَ وَلَا أَطِيرْ !
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى جَزَعَ الهَجِيرْ

وَإِذَا تُسَائِلُكِ الصَّفَا نِي: أَيْنَ شَاعِرُهَا الحَبِيبْ؟
قُولِي لَهَا : بَلْ أَيْنَ فِيـ ـكِ خَيَالُهُ العَرِدُ الرَّطِيبْ ؟
إِنَّا وَهَبْنَا رُوحَهُ قَبَسًا لِعَالَمِهِ الرَّهِيبْ ...
فَغَدَا شُعَاعًا هَائِمًا يَهْتَزُّ فِي فَلَكٍ غَرِيبْ
يَا فِتْنَةَ المَاضِي حَنَا نَكِ وَارْحَمِي نَغَمِي الكَئِيبْ

لَا تَتْرُكِينِي مَوْجَةً تَفْنَى وَشَاطِئُهَا قَرِيبْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى وَلَهَ المَغِيبْ!

مِنْ أَيِّ نُورٍ بَعْدَ نُو رِكِ يَسْتَقِي زَمَنِي سَنَاهْ ؟!
وَبِأَيِّ عِطْرٍ بَعْدَ عِطْـ ـرِكِ يَحْتَسِي قَلْبِي شَذَاهْ ؟!
وَبِأَيِّ خَمْرٍ بَعْدَ خَمْـ ـرِكِ خَافِقِي يَنْسَى أَسَاهْ ؟!
وَبِأَيِّ سِحْرٍ بَعْدَ سِحْـ ـرِكِ أَشْتَهِي مَالَا أَرَاهْ ؟!
وَبِأَيِّ وَحْيٍ بَعْدَ وَحْـ ـيِ هَوَاكِ يُلْهِمُنِي الإِلَهْ ؟!

لَا تَتْرُكِينِي دَمْعَةً تَجْرِي بِأَجْفَانِ الحَيَاهْ
إِنِّي شَرِبْتُ عَلَى يَدَيْـ ـكِ مَعَ الهَوَى وَاحَسْرَتَاهْ!

لَا تَتْرُكِينِي فِي ضَلَالْ بَيْنَ الحَقِيقَةِ وَالخَيَالْ
فَلَرُبَّمَا أَنْسَى وَلَا يَبْقَى مَعِي طَيْفُ الجَمَالْ
وَرُبَّمَا أَنْسَى وَنَا رُكِ فِي رَمَادِيَ لَا تَزَالْ
إِنِّي تُرَابٌ لَا يُرِ يدُ البَعْثَ مِنْ فَرْطِ المَلَالْ
شَرِبَ الهَوَى مِنْ رَاحَتَيْـ ـكِ فَرَاحَ يَشْرَبُهُ الزَّوَالْ

محمود حسن اسماعيل